

التفسير المختصر - سورة البقرة (٠٢) - الدرس (٩-٩) : تفسير الآية ١٨٨ ، المحافظة على أموال المؤمنين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٩-١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وبعد، يقول الله سبحانه وتعالى في قرآن الكريم:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوْبِهَا إِلَى الْحُكَمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨)

أيها الأخوة ؛ في الآية إشارة لطيفة، فإن الله عز وجل لم يقل: ولا تأكلوا أموال إخوانكم، ولم

يقل: ولا تأكلوا أموال الغير، ولم يقل: ولا تأكلوا أموال الناس، بل قال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾

فإن الإنسان كيف يأكل ماله ؟ إذا وضع خمسينات ليرة، ثم نقلها من مكان إلى مكان، هل يعد قد أكل ماله ؟

في الآية إشارة إلى أن المؤمنين، ما هم عليه، أو ما ينبغي أن يكونوا عليه أنهم أسرة واحدة، وكيان واحد، شخصية اعتبارية واحدة، حيث إن أحدهم لو أخذ مال أخيه بحكم علاقة الإيمان، وحكم الكيان الواحد، والشخصية الواحدة، والمصلحة الواحدة والهدف الواحد، فكأنما أكل ماله، فمال أخيك إذا كنت مؤمناً في حكم مالك، مال أخيك هو مالك من زاوية واحدة، من زاوية وجوب المحافظة عليه، فلن تمنع عن أكله ظلماً وعدواناً من باب أولى.

فأنت مكلف أن ترعى هذا المال، يعني مثلاً لو أن إنساناً سافر وكل إنساناً آخر بإدارة أمواله، فهذا الإنسان الموكل بإدارة الأموال، لو أخذ من هذه الأموال عدواً، فله عقابٌ مضاعف، لأنه مؤمن، ولأنه موكل، لو جاء سارق غريب وسرق المال يحاسب كسارق، أما الموكل ؟ الوكيل والأمين المكلف بالحفظ على المال، إذا أخذ المال فجرمه مضاعف.

ربنا عز وجل يقول:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾

يعني انتبه إليها المؤمن، فأنت مؤمنون، وأنتم كيان واحد، وشخصية اعتبارية واحدة، وكتلة واحدة، هدفك واحد، كلفت بالتعاون، والتعاضد، المساعدة، فإذا أكل أحدكم مال أخيه، فكأنما أكل ماله، يعني أن هذا المال مال أخيك هو مالك، من زاوية المحافظة عليه، إذا ينبغي أن تمنع عن أكله بالحرام.

هناك معنى آخر للآلية، يعني إذا أكلت مال أخيك أضعفته، وإن أضعفته، أضعف نفسك، لأنك موكل به.

حسناً، لو فرضنا أنّ أباً أعان أولاده، حتى صاروا منتجين، فهو يرتاح، أمّا لو أهملهم لصاروا عالة عليه، فأنت إذا أكلت مال أخيك أضعفته، وإن أضعفته فأنت مكلف بالإنفاق عليه ومعاونته. يعني ما من آية تشير إلى هذه الأخوة، وهذا التعاون، وهذا التعاوض، بهذه الآية:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾

قد يسأل سائل هل هناك أكل لأموال الناس بالحق؟ الجواب نعم أنت حينما تتجه، وتبذل جهداً كبيراً، وتسافر، وتتأتي ببضاعة، لك أن تضيف على ثمن الشراء، والتكلفة الإجمالية، هامش ربح، فأنت إذا أكلت مال أخيك، ولكن بالحق، مقابل جهد.

بالمناسبة، لو تتبعتم الأحكام الشرعية، لوجدتم أن معظم الأحكام الشرعية، تتعلق بموضوعين كبيرين، استعرض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم، وفي السنة، وفي كتب الفقه، فمعظم الأحكام الشرعية، تتعلق بموضوعين كبيرين ؛ موضوع كسب المال وإنفاقه، وموضوع المرأة، لأن الإنسان لا يؤتى إلا من هذين البابتين، فمثلاً إنسان مستقيم، طاهر، مقبل على الله، من أين يؤتى ؟ الشاب يؤتى من المرأة، والتاجر يؤتى، من كسب الأموال، لذلك أول توجيه للشباب غض البصر، وأول توجيه للتجار والراشدين، الذين يعملون في مجالات الحياة، ضبط الأموال، وضبط الدخول.

فأيها الأخوة الكرام ؛ الإنسان ما لم يضبط دخله، ويضبط خرجه وإنفاقه، لا يستطيع أن يقبل على ربه، وما لم يضبط جوارحه ؛ عينه، وأذنه، ولسانه، ويده، ورجله، فلا يستطيع أن يقبل على ربه، فالإنسان قد يؤتى من قبل الشهوة، ومن قبل المصلحة، فقد تقتضي مصلحته أن يأكل مال الناس بالباطل، فهو يؤتى من هذا المنحني.

لذلك :

((لَا تَزُولُ قَدْمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَمَمَّا أَعْمَلَ فِيمَا عَلِمَ))

(رواه الترمذى عن ابن مسعود)

والمرء حينما يموت، ترفرف روحه فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعنكم الدنيا كم لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفنته في حله وفي غير حله، فالهباء لكم والتبرع على. ورد في السنة، أن ملك الموت يخاطب أهل الميت:

((فَوَالذِّي نَفْسَهُ مُحَمَّدٌ بِيدهِ، مَا مِنْ بَيْتٍ إِلَّا وَيَقِنَ فِيهِ مَلَكُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ خَمْسَ مَرَاتٍ، فَإِذَا رَأَى أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ انْقَضَ أَجْلَهُ، وَانْقَطَعَ رِزْقُهُ، أَلْقَى عَلَيْهِ غَمَّ الْمَوْتِ، فَغَشِّيَتِهِ سَكَرَاتُهُ، فَمَنْ أَهْلَ الْبَيْتِ الضَّارِبَةَ وَجْهَهَا، وَالصَّارِخَةَ بُوَيْلَهَا وَالْمُزَرَّقَةَ ثُوبَهَا، يَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ: فِيمَا الْفَزْعُ ؟ وَمَا الْجَزْعُ ؟ مَا أَذْهَبَتْ لَوْاحدَ مِنْكُمْ رِزْقًا وَلَا قَرَبَتْ لَهُ أَجْلًا، وَإِنَّ لِي فِيكُمْ لِعْدَةً، ثُمَّ عُودَةً، حَتَّى لَا أَبْقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا.))

تسمع أحياناً أنَّ الأب مات والأم ماتت، والأولاد بين مسافر ومتزوج، أو متزوجة، والبيت خلا من أهله بعد أنْ كان عامراً، هكذا سنة الحياة، فالكل مرتحل، كلنا تحت أطباق الشري بعد كذا عام، كلنا دون استثناء، وقد أتى علينا يومٌ لم نكن شيئاً مذكوراً.

الإنسان إذاً حادث، يأتي ويذهب، يبقى عمله الطالح، أو عمله الصالح، العمل الصالح تذهب مشقتها ويبقى ثوابه، والعمل السيئ تذهب لدته وتبقى تبعته، إذاً لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل.

فقد قال رسول الله لسعد:

((يا سعد أطيب مطعمك تكون مستجاب الدعوة))

أطيب مطعمك، فإذا كسبت رزقاً حلالاً، وشتريت به طعاماً، فهذا الطعام طيب. أجري لشخص شاخ تحليل في سنة ١٩٩٦، وكانت نتيجة التحليل تشير إلى صحة جيدة، وهذه نعمة والله، فقال لابنه يا بني هذا من المال الحلال، الذي جنته منذ شبابي، فالإنسان لما يكون دخله حلالاً، وإنفاقه حلالاً، فالله عز وجل يمتعه بالحياة.

قال الله عز وجل:

﴿قَالَ اهْبِطُ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيْنَكُمْ مِنِّيْ هُدًى﴾

فانظر إلى هذه الآية ما أجملها:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىِيْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣)

(سورة طه: ١٢٣)

وفي آية ثانية:

﴿فَمَنِ تَبَعَ هُدَىِيْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾ (٣٨)

(سورة البقرة: ٣٨)

أربعة أشياء: لا يضل عقله، ولا تشقي نفسه، ولا يحزن على ما فات، ولا يخشى مما هو آت. بربكم هل هناك مكاسب يكسبها الإنسان أكثر من ذلك؟ ألا يضل عقله، وألا تشقي نفسه، وألا يندم على ما فات، وألا يخشى مما هو آت، بأبيتين:

﴿قَالَ اهْبِطُ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيْنَكُمْ مِنِّيْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىِيْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣)

وقال في آية ثانية:

﴿فَمَنِ تَبَعَ هُدَىِيْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾ (٣٨)

فحن يمكن أن نعتبر، فأكبر مأخذين نؤخذ بهما، المال والنساء، وما من نقطتين يضعف أمامهما الإنسان إلا المال والنساء.

يعني إذا أردنا أن نشتري إنساناً ما فهذا ممكن، إذ يبيع أمته ووطنه عن طريق امرأة أو شيك مصرفياً، فالمؤمن محسن من جهة المال والنساء، النساء بعض بصره، فلا يخلو بامرأة، ولا يملأ عينيه من الحرام، ليس عنده مجالس اختلاط، فهو في عافية من خطر النساء، والمؤمن دخله

حلل، وإنفاقه حلال، وهو محسن خطر المال، والإنسان إذا نجا من المرأة، والدرهم، والدينار، نجا واستحق جنة ربه.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض))

(رواه البخاري)

الثياب، إذا كان بنطاله مكويًا فهو لا يصلی حرصاً على كية البنطال، فهو عبد البنطال، هذا عبد للبنطلون، تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد الخميس، الثوب، تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، هؤلاء كلهم تعسو، لكن المعنى المخالف، وسعد عبد الله طبعاً وحقاً.

الآلية دقيقة:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾

فالإنسان يحاسب نفسه حساباً شديداً، التقوى ها هنا، التقوى هنا، ويشير إلى القلب، ترك دائق من حرام خيراً من ثمانين حجةً بعد الإسلام.

أحد الأئمة التابعين، كان يملك مهلاً تجاريًّا تباع فيه ألبسة، فذهب ليصلی الظهر، فوضع ابن أخيه مكانه، وفي حلبة بأربعين درهم، وحلبة بمئتين، وحلبة بمئة، وهو خارج من المسجد، رأى أحد رعاياً يحمل حلبة من عنده، فقال له: بكم اشتريتها؟ قال له: بأربعين، هي حلبة المئتين، فقال له: هذه ليست كذلك، هذه سعرها أقل، قال له: لا، عندنا في بلدنا ثمنها خمسين، فأنا اشتريتها وأنا راضٍ، قال له: أنت لا تعرف بما زال صاحب المتجر يجر الشاري إلى متجره، حتى أرجع له المئتين الزائدة، هذا هو المؤمن، إذا فنحن لما نتعامل مع الله بهذه الطريقة، بورع شديد، بإنصاف، بعدالة، بصدق، بأمانة، فالمال يكون حلالاً مما يعني أن الطعام طيب، والله عز وجل يستجيب لنا إذا دعوناه، قال له: يا سعد أطرب مطعمك تكون مستجاب الدعوة، ويقول العبد الآخر: يا رب، يا رب، ومأكله حرام، ومشربه حرام، وغذّي بالحرام، فأنت يستجاب له؟

فيما أبى الإخوة الكرام؛ موضوع كسب الرزق موضوع خطير، منه تؤتى، وموضوع إنفاق المال موضوع خطير أيضاً، منه تؤتى كذلك، ويحضر الأغنياء أربع فرق يوم القيمة، فريق جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام، فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، طبعاً من باب أولى، بقى الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، فهذا يسأل ويحاسب.

لذلك:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

والمؤمن عند كل حركة يفكر بجواب الله عز وجل، ويعده من الآن.

والحمد لله رب العالمين